# من 1554 إلى 1603

بعد توحيد محمد الشيخ لبلاد المغرب تحت لواء الدولة السعدية، لم تتخلص هذه الدولة الفتية من التحديات السياسية التي ظلت تسفر عن وجهها في كل حين. فالمصادر التاريخية تذكر أن نار العداوة بين العثمانيين والسعديين اضطرمت أكثر، خصوصا بعد أن عرض السلطان العثماني سليم ضم المغرب إلى الإمبراطورية العثمانية، والجواب غير الديبلوماسي الذي صدر من محمد الشيخ كما ورد في "تاريخ الدولة السعدية التاكمدارتية" حيث قال :"سلم على أمير القوارب سلطانك وقل له أن سلطان المغرب لابد أن ينازلك على محمل مصر"، وهو الجواب الذي أثار حنق السلطان العثماني، ما حمله على التفكير في إعداد حملة للقضاء على الدولة السعدية. غير أن الإلمام بالوضع الدولي العام، حيث التقارب السعدي مع الدول الإيبيرية، قد جعل السلطان العثماني يتخوف من المواجهة الحربية، ويفضل تدبير مؤامرة لاغتيال محمد الشيخ. وقد تتحقق للأتراك ذلك بإرسال فرقة من الجنود الذين تظاهروا بالهروب من العثمانيين والتحاقهم بمعسكر محمد الشيخ. ثم على حين غفلة لما كان محمد الشيخ في إحدى جولاته بتارودانت اغتالته الفرقة العسكرية التركية التي كانت ترافقه يوم 23 أكتوبر 1557.

تولى ابنه عبد الله الغالب الحكم في ظروف سياسية متوترة، لهذا ظل التهديد التركي على قائمة همومه. وقد تمكن هذا السلطان السعدي من تحقيق نصر حاسم على العثمانيين في معركة وادي اللبن يوم السبت 2 أبريل 1558. ولاحقا تحكم هذا التهديد العثماني بشكل كبير في السياسة التي اتبعها عبد الله الغالب إزاء القوى المسيحية. فعلا تناسى العثمانيون على مضض بلاد المغرب، ويظهر هذا بجلاء حين نرى عدم تحمسهم لمساعدة أحد الثوار من العائلة السعدية وهو عبد المؤمن أخ المولى عبد الله. غير أن التخوفات ظلت قائمة باستمرار. ومن هنا نفهم كيف تخلى المولى عبد الله الغالب عن جزيرة بادس للإسبان مقابل طرد الخطر العثماني. يقول المؤرخ المجهول :"وقد خاف السلطان أن تخرج عمارة الترك من تلك البلاد إلى المغرب فاتفق مع سلطان النصارى أن يخلى لهم الادالة من حجر بادس". كما نعلم كيف تواطأ مع البرتغال سنة 1562 حين امتنع عن دخول مازكان وتحقيق نصر وشيك. وفي نفس الوقت لم يستجب عبد الله الغالب لدعوات الموريسكيين للثأر :" وأما أهل الأندلس وغشه لهم وتوريطهم للهلكة في دينهم وأقواهم وأولادهم وفي نفوسهم فأمر مستعظم عند جميع من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان".

وعموما فقد سلك عبد الله الغالب سياسة التقارب مع الدول المسيحية. ويبدو أن تخوفاته كانت في محلها، ويمكن أن ندرك هذا حين نقرأ ما حدث لاحقا مع ابنه محمد المتوكل. فهذا الأخير سينحى من السلطة بالتجاء عمه المعتصم وأحمد إلى العثمانيين، وقد تحقق لهما ذلك في معركة الروكان بقيادة باشا الجزائر رمضان باشا. ورغم المحاولات الكثيرة التي قام بها محمد المتوكل فإنه لم يستطع استعادة حكمه. ولهذا عرض المساعدة على ملك البرتغال دون سيباستيان مقابل التخلي عن جميع المناطق الساحلية للمغرب. وهو عرض سال له لعاب الملك البرتغالي الشاب. ولما أيقن المتوكل من النية المؤكدة للدون سيباستيان لتقديم يد العون انتقل من الجنوب إلى الشمال، ومن طنجة وجه المتوكل رسالة إلى علماء فاس يعلل فيها الخطوة التي قام بها، وقد رد عليه العلماء بجواب يستعتبونه بلغة حادة.

وفي يوليوز 1578 تحركت القوات البرتغالية الجرارة، وكان الجيش البرتغالي يتكون من 20 الف محارب، وقد وصلت هذه القوات التي أرست في مدينة أصيلا يوم 12 يوليوز 1578. وبعد مكاتبات من المعتصم لردع الدون سيباستيان وثنيه عن مغامرته، تقدم الملك السعدي إلى القصر الكبير، وهناك كاتبه برسالة يقول فيها :"جئتك من مراكش ورحلت إليك ستة عشرة مرحلة وأنت لم تدن إلي مرحلة واحدة". فتقدمت القوات البرتغالية مصحوبة بخمسمائة فارس تابعة للمتوكل، وحطت رحالها على الضفة اليسرى لنهر وادي المخازن حيث وقعت المعركة الشهيرة التي تسمى بمعركة وادي المخازن أو معركة الملوك الثلاثة. وانتهت بانتصار ساحق للسعديين، وقتل فيها ثلاثة ملوك : المعتصم الذي قتل مسموما قبل المعركة كما تذكر المصادر، والمتوكل الذي سيلقب بالمسلوخ، ودون سيباستيان.

## التوجه الديبلوماسي لأحمد المنصور

تولى الحكم بعد معركة وادي المخازن أحمد المنصور الذهبي، وقد اتسمت سياسته الديبلوماسية بسمة مراعاة موازين القوى. فمن جهة قام بمهادنة العثمانيين وهذا ما يظهر بجلاء في إرسال وفد إلى السلطان العثماني مراد الثالث في غشت 1589 يرأسه علي التمجروتي صاحب "النفحة المسكية". كما اتسم في البداية بالميل الحذر إلى الجناح البروتستانتي بقيادة الملكة الإنجليزية إيليزابيت ضد الكاثوليك. فقد كانت بين أحمد المنصور والملكة إيليزابيت مراسلات سنتي 1587 و1588 بشأن توحيد الجهود من أجل مساعدة الدون أنطونيو لاستعادة العرش البرتغالي وتنحية الملك الإسباني فيليب الثاني عنه. وهذا يبين الوزن السياسي والديبلوماسي الذي كانت عليه الدولة المغربية

في زمن أحمد المنصور. ومما يزكي هذا كذلك أن يكون الدون كريستوف نجل الدون أنطونيو رهينة عند المنصور الذهبي مقابل قرض يهبه هذا الأخير للأمير البرتغالي.

غير أن المنصور لم يكن جادا في مناصرة هذا الجانب أو ذاك، بقدر ما كانت تهمه مصالحه وما يجنيه من الآخر المسيحي. وهذا ما أشار إليه الفشتالي لما قال :"فلم يزل أمير المؤمنين يسدي في أمرها ويلجم... ويوعد ويعد وبنى ذلك على أساس من المكايد"، ويظهر ذلك بجلاء في عدم وفائه للإنجليز بمناصرتهم في استعادة العرش البرتغالي وتنحية فيليب الثاني، وذلك بعد أن قام هذا الأخير بالتنازل عن أصيلا حيث جلت منها القوات الإسبانية يوم 13 شتنبر 1589. وأقصى ما تمكنت إنجلترا من تحقيقه مع المنصور هو استعادة دون كريستوف الذي مكث لثلاث سنوات في المغرب كرهينة، وذلك بعد أن ذهبت الظنون بإليزابيت إلى إمكانية عقد المنصور لصفقة مع فيليب الثاني من أجل تبادل هؤلاء الخارجين على السلطة؛ أي إرسال المنصور للدون كريستوف مقابل تسلمه للناصر الذي كان لاجئا في البرتغال، ثم في إسبانيا بعد أن ضمت هذه الأخيرة العرش البرتغالي.

إلا أن تأليب فيليب الثاني لعديد من الثوار بالمغرب كما سنرى لاحقا قد جعل المنصور الذهبي يلتحق بالمعسكر البروتستانتي، ونلمس هذا في مشاركته بثلاث سفن مسلحة ومزودة بالمؤن في محاصرة قايس والتي انتهت باحتلالها في يوليوز 1596. ويشير الفشتالي في نص إلى أن المنصور انضم إلى الجناح البروتستانتي ردا على ما حاول فيليب الثاني إثارته من فتن في المغرب، يقول :"اهتم أيده الله بالجهاد وأخذ الأهبة له والاستعداد ومجازاة عدو الدين على كل ما اعتمل من كيد الإسلام وتفريق كلمته". لهذا نلاحظ مباشرة بعد القضاء على ثورة الناصر تبادل السفارات بين المغرب ودولتين حليفتين للإنجليز البروتستانت وهما : هولندا وفرنسا. فقد استقبل المنصور وفدا هولنديا في أكتوبر 1596 وآخر فرنسيا في دجنبر من نفس السنة. وقد كان المنصور على دراية تامة بتفاصيل هذا النزاع بين فرنسا وإسبانيا، كتب الفشتالي يقول :"واتصل أهل افرنصة وانضم بعض إلى بعض فقويت شوكتهم واستفحل أمرهم وتعاظمت صولتهم فسمت همتهم إلى استرجاع ملكهم ومعاودة سلطانهم وشمروا لمغالبة طاغية قشتالة". ومما يدل على الوزن السياسي والديبلوماسي لأحمد المنصور أن الملكة إيليزابيت طلبت سنة 1600 قرضا من أحمد المنصور من أجل شن هجوم على المستعمرات الإسبانية في الهند، وقد اشترط المنصور على الملكة اقتسام هذه الأراضي. وهو ما يعني أن المنصور كان متشبعا بالأفكار التوسعية التي كانت سائدة في ذلك الزمن، وهو ما سيظهر كذلك في غزو السودان.

## غزو السودان

لم يبد السلاطين السعديون الأوائل اهتماما كبيرا ببلاد السودان، باستثناء اهتمام كل من أحمد الأعرج ومحمد الشيخ بملح تيغازي. لكن مع استقرار الدولة السعدية مع أحمد المنصور تطلع هذا الأخير إلى ضم بلاد السودان للمغرب، وقد ساعده في ذلك النزاع السياسي الذي قام بين إمارة بورنو وإمارة صنغاي. انطلق هذا المشروع التوسعي للمنصور سنة 1583، حيث ابتدأ بإخضاع كل من منطقتي توات وتيكورارين. ويبدو أن المنصور احتل المنطقتين لقطع الطريق على الأتراك، فقد كانت هذه المنطقة الصحراوية الشرقية تقع في الحدود الجنوبية للمغرب الأوسط الذي كان خاضعا للعثمانيين. خرجت حملتان منصوريتان لضم المنطقتين، إحداهما من فاس والأخرى من مراكش والتقتا في سجلماسة. ومنها اتجها إلى تيكورارين وتوات.

استغل أحمد المنصور لإخضاع إمارة صنغاي تمرد أحد أمرائها علي بن داود أخ الأسكيا إسحاق، وقد ورد على المنصور في مراكش مارس 1589، وكما يذكر السعيدي في "تاريخ السودان" فقد أطلع هذا الأمير المنشق على :"أخبار سنغاي وبما كانوا عليه من الأحوال الذميمة والطبائع الرذيلة مع ضعف القوة، وحضه على أخذ الأرض منهم". وقبل أن يتخذ المنصور قرار غزو السودان كتب إلى الأسكيا إسحاق يطلب منه مبايعته والدخول في طاعته، وقد قابل هذا الطلب بالرفض. وفي نفس الوقت عقد مجلسا للشورى لمعرفة رأي أهل الحل والعقد من هذا المشروع، وقد أبدى هؤلاء تحفظهم استنادا على حجتين : أولا صعوبة اجتياز الصحراء القاحلة، وثانيا أنه مشروع مستحدث لم يسبقه إليه أحد من الدول السالفة مع وفرة الجنود واتساع نطاق الدولة. وفند المنصور هاتين الحجتين ولم ينزل عند رأي أهل الحل والعقد، فقد رأى أن التجار يقطعون تلك الفيافي فرادى من أجل ممارسة التجارة، فالدولة ذات الإمدادات والاعتمادات أولى بقطعها. كما ذكر المنصور بتفوق الجيش المغربي بامتلاكه للسلاح الناري في مقابل الأسلحة التقليدية لجنود بلاد السودان.

خرج الجيش المغربي بقيادة الباشا جؤدر، وقد قطع نحو ألفي كيلومتر من مراكش إلى نهر النيجر، قاطعا هذه المسافة في ظرف أربعة أشهر. وقد جرت معركة حاسمة بين الجيش المغربي والجيش السوداني في 12 مارس 1591 وانتهت في يوم واحد بانتصار الجيش المغربي بفعل امتلاكه للسلاح الناري. وبعدها اتجه جؤدر باشا إلى العاصمة كاغو في 13 ماي 1591 بعد أن هرب منها إسكيا إسحاق ومعظم ساكنة المدينة كما تقول رواية السعيدي في "تاريخ السودان". وقد اضطر إسكيا إسحاق للاعتراف تحت ضغط الهزيمة بخلافة المنصور ووعد بإرسال خراج إلى بيت المال السعدي، غير أن المنصور الذهبي رفض كل هذه الاقتراحات وهو الأمر الذي حمله على تنحية جؤدر

باشا عن قيادة الجيش وتعيين محمود باشا قائدا لمواصلة القتال، وهو الذي استطاع بالفعل أن يقضي على الإسكيا.

## ثورة الناصر : أوضاع دولية قلقة

لم يكن المغرب الأقصى في عصر أحمد المنصور بمنأى عن الصراعات الدولية التي كانت تجري. لقد انهزم الإسبان مع الإنجليز في معركة الأرمادا، وبعدها أبدى المنصور تأييدا واضحا للدون أنطونيو وأحقيته لاستعادة العرش البرتغالي الذي استولى عليه الملك الإسباني فيليب الثاني. وقد كان من نتائج ذلك أن عمل الملك الإسباني على إثارة الفتن في المغرب، فمن جهة قامت ثورة ابن قرقوش في بلاد غمارة سنة 1588 بإيعاز منه. لكن أخطر من هذه الثورة هي تلك الانتفاضة التي قام بها الناصر بن عبد الله الغالب والذي كان لاجئا لدى الملك البرتغالي، وقد استغل الملك فيليب الثاني هذه الورقة من أجل إحداث الفتن داخل المغرب وصرف انتباه المنصور عن الخلاف الكاثوليكي البروتستانتي الناشب في أوربا. يقول الفشتالي في "مناهل الصفا" عن دواعي مساندة فيليب الثاني للناصر :"فأمل الناصر لتفريق الكلمة وتحريك جوار الفتنة به ليثني بذلك عزم مولانا أمير المؤمنين ويشغله عن شأنه ويكافئه على ما يعتمد فيه من نكايته، فرمى به إلى مليلية من سواحل العدوة". ونزل الناصر في مليلية التي كانت مستعمرَة إسبانية في 7 ماي 1595 بقوات معظمها من الموريسكيين الذي وجدوا فرصة للهروب من الاضطهاد المسيحي، كما وجدها فيليب الثاني بدوره فرصة للقذف بهم في أتون الحرب داخل المغرب للتخلص منهم. أما من حيث سبب اختيار الشمال الشرقي لإنزاله فالفشتالي يشير إلى ما يتيحه ذلك من إمكانية الهروب إلى العثمانيين في حالة التولي، يقول :"وليجد [الناصر] وليجة إلى المروق من هنالك لجهة الشرق إن بدا له من أمره ما يكره".

استطاع الناصر أن يتقدم من مليلية إلى تازة، ومن تازة زحف إلى فاس، لكن تمكن الشيخ بن أحمد المنصور أن يتصدى له في سفح جبل مدغرة قرب فاس وانهزم الناصر في 2 غشت 1595، وقفل الناصر راجعا إلى المغرب الشرقي. وقد كان من المنصور أن كاتب والي العثمانيين على الجزائر خضر باشا يخبره بنواياه، ورد في "رسائل سعدية" أن المنصور كتب إليه :"فلما رأيناه تقاعس عنكم لم نرد إقحامه إلا بعد مفاوضتكم وإعلام مكانكم". وبعد سنة من الثورة استطاع محمد الشيخ أن يقضي بالكامل على حركة الناصر بعد أن تمكنت قواته من القبض عليه يوم 21 ماي 1596.

**التاريخ الإقتصادي : السكر المغربي**

يشير الفشتالي إلى أن اهتمام السعديين بزراعة السكر كان دأب كل السلاطين السعديين منذ قيام دولتهم، فحين يكتب عن صلاحية أرض سوس بالخصوص لهذه الزراعة يقول :"كل من تولى الخلافة من ذريته الخلفاء الكرام منه إلى مولانا الإمام أمير المؤمنين أيده الله يقطع بأن ذلك لا يتأتى من جهة الإمكان في غير أرض سوس"، وإن كان الفشتالي لا يفوته أن ينبه لوضع هذه الزراعة في فترة أحمد المنصور مقارنة مع ما كانت عليه قبله أو كما يقول "لا تشبيه بينها وبين ما تقدم".

ما مميزات هذا المشروع الاقتصادي؟ يقدم لنا النص الأخير الذي اقتبسناه من الفشتالي أولى خصائصه، وهو التأميم، سواء زراعة أو تجارة، فكما يقول دانييل ريفيه :"كانت التجارة الخارجية في المغرب [السعدي] أمرا سياديا تشرف عليه الدولة". فهذا المشروع رعته الدولة نفسها وكانت تستفيد مباشرة من مداخيله وعوائده، بل كثيرا ما طالته ما يطال السياسة من اضطرابات، والمصادر الدفينة لتاريخ المغرب تؤكد هذا الأمر حين تتحدث عن تخريب المتوكل لهذه المصانع حتى لا يستفيد منها منافسه السياسي عبد الملك المعتصم في صراعه معه. غير أن وثائق عديدة تشير إلى أن إشراف الدولة على هذه المعاصر كان يتم عبر اكترائها لأشخاص يؤدون خراجا عليها، معظمهم من اليهود. وحسب دو طوريس :" كل معصرة من المعاصر السبع كانت تدفع لمحمد الشيخ مباشرة بعد تحرير أكادير 7500 مثقال، أي ما مجموعه 52500 مثقال، وهو ما كان يعادل 220 كيلو ونصف من الذهب".

أما عن المصانع نفسها والتي قدرتها وثيقة برتغالية سنة 1563 ب 18 معصرة، فيبدو من خلال دراسة "بيرتيي" الأثرية أن الشذرات التي دونها الإخباريون المغاربة المعاصرون كانت صحيحة وفي محلها، فالفشتالي كتب عنها :"وشأن هذه المعاصر شأن الخوارق الخارجة عن طوق البشر" ، و"بيرتيي" يذكر أن الحقول بجنوب تارودانت بلغت مساحتها حوالي 15 ألف هكتار متصلة، ويشير "بيرتيي" دائما أن قنوات الري شقت وامتدت لمئات الكيلومترات لتسقي المزارع، كما أن صبيب المياه تراوح بين 100 و250 لتر في الثانية. أما العدد الكبير من العمال في المصانع الذين شبههم الفشتالي بـ "مجمع الورى وأول الحشر وقرية النمل ولا تسأل عن هولها ولغط الأصوات بها تدل على عظمة شأنها وضخامة أحوالها"، فأحد الباحثين الإسبان أشار إلى أن كل معصرة كانت تضم حوالي ألفي عامل يتشكل الجانب الأكبر منهم من العبيد، أما بالنسبة لمداخل المبيعات في أوربا فيحدثنا بعض الباحثين عن "نسبة مهمة من المبيعات لأوربا تعود على البلاد بثلث المداخيل"، ويشير باحث آخر أن عائدات السكر حسب

المصادر الإنجليزية بلغت 600 ألف أونصة. وقد كانت لإنجلترا حظوة كبيرة في هذا المشروع الاقتصادي؛ بحيث أنها احتكرت السكر المغربي وهو ما حملها على إنشاء الشركة البريرية سنة 1585.

لكن لابد من الإشارة إلى أن هذا المشروع لم يلق ترحيبا من المجتمع المغربي، ونجد في كتاب "تاريخ السكر المغربي" لبرنار روزنبرجي وسعاد اليمني إضاءات مهمة حول الموضوع. فقد كان للنزاع القائم بين الدولة والمجتمع صدى اجتماعي، إذ حركة تهجير وترحيل القبائل التي تدخل في صراع مع السلطة القائمة قد تنامت في عهد أحمد المنصور الذي أولى أهمية متزايدة لزراعة قصب السكر، ومن هذا القبيل ما حدث لبعض القبائل العربية التي لم تسمها وثيقة. ونجد أن قلة اليد العاملة في الأراضي الزراعية الصالحة لزرع قصب السكر بسبب حركة التهجير قد حملت أحمد المنصور على ترحيل قبائل عربية أخرى مناصرة إلى المناطق التي تحتاج للعمال. ويقدم نص كتبه الأسير البرتغالي "أنطونيو دو صلدانيا" شهادة على القهر والعسف الذي مارسته الدولة السعدية بإرغامها الفلاحين والمزارعين على زراعة قصب السكر مما حتم عليهم التخلي على أنشطتهم الزراعية السابقة، يقول دوصالدانيا عن انتفاضة بسوس سنة 1583 :"ثار وليان بجبال الأطلس وأعلنا استياءهما من إقامة الشريف لمعاصر السكر ليتسنى له تنفيذ شروط عقود وقعها مع المسيحيين وهو ما تسبب في إفقار المسلمين، بحيث لم يعودوا يجدون ما يقتاتون به. وبناء عليه اجتمعوا وهاجموا معصرة وهدموها بالكامل ونهبوا التجار اليهود الذين كانوا يكترونها والذين طوروها، علاوة على قتلهم مسلمين هبوا لحماية تلك المعصرة".

## وفاة أحمد المنصور

توفي أحمد المنصور متأثرا بوباء الطاعون يوم 24 غشت 1603، وقد كانت وفاته بداية نهاية الدولة السعدية، إذ أن البلاد دخلت في نفق مظلم من الصراعات الطاحنات والمواجهات الدامية بين أبنائه. يقول التامنارتي في "الفوائد الجمة" :"وفي سنة اثنتي عشرة وألف بلغني وفاته بمدينة فاس، فنزال الأرض بذلك ما نزلها من الفساد والفتن".